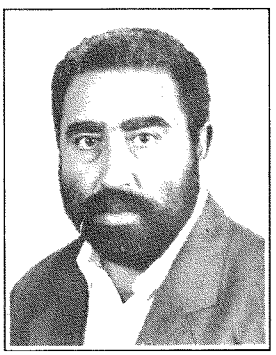

محمد الأشعري

فــاس

خَجِلاً من جدار يُلَمْلِمُ أَحجاره
لُذْتُ بالظل.
كان الشُّعَاعُ الوحيدُ الذي سكبته الظهيرةُ
في صَدَاِ البابِ
مُنْهَمراً
وَيد مثل نرجسة تتلألأُ في رنَّةِ الطَّرْقِ
والعَابُرون على أُهبة لمصادرة الرعشة العابرة.
كنتُ أُرهف سَمْعي لوقع الحفيفِ الحريريِّ
في هَدأةِ البهو
عندما سقطت خفقة من بياض الجدارِ،
وأمطرني الظُّهر بالعَبَقِ الوَثني لأعشاب فَاس
فكيف أحوِّل وجهي.
ولما يَزَل صدأُ البابِ مُنهمراً فَوقَ معصمها
والحَنين المُلَّفعُ بالصمت يَنْقُر أسماءه
في نُحاس النداء
ـ شكون!
ـ أنا
ـ شكون!
ـ أنا العابر المُرُّ أَبحثُ عن وجه سَيدة سُرِقت من عبير
الشتاء.

وأُودِعَ مَلْمَحُهَا العذب
في غَيمةٍ صاخبة
وقد خِلْتُ أَنِّي عثَرت عَلَى بعضها،
في العُبُورِ السريع لِهَذَا الشذى
أو لتلك السُّهولة في المشي
تلك العذوبة فِي رَقَّة الجفن،
كلهن يمارسن نفس التشابه
نفسَ انْدِلاَع الحَرائق
نفسَ اخْتِلاج العبارة.
ربما انتظر الظل هذا العبور طويلاً
ربما نبتت للنداء جدائل من فضة
واشتَوَت في الظهيرة
نَبع صَوَاني.
أو مباخر مُترعةً بالشَّذَى
وليس على الظل مِنْ حَرَجٍ،
سقطت شبكات الكَلاَمِ من القصب المُتَلَعْثِمِ
وانْتَثَر الجسد الحي في قفص من زحام
فمن يعثر الآن في عطش الضوء
عن صخب من رخام؟!